الفصل الأول

خصائص الدعوة إلى الله

- أولا: وحـدة مصـدرها.
- ثانيا: فطـرية منهجها.
- ثالثا: ثباتها وامتدادهـــا مع الزمن.
- رابعا: قيامهـا على الإقنـاع والحُجة.
- خامسا: غايتهـا الرحمـة للعـالمين.

obeikandl.com

obeikandl.com

الدَّعْوَةُ إلى الله تعالى ذات خصائص ومَيْزَات لا تتحقّق في غيرها من الدَّعوات، ومن هذه الخصائص:

أولاً: وَحدة مصدرها

"الدَّعْوَةُ إلى الله واحدةٌ من حيث مصدرها.

فالأصلُ الذي تقومُ عليه الدَّعْوَةُ إلى الله هو ((الإيمان بالله وحده لا شريك له))، ومن هذا الأصل تستمدُّ مقوِّمات حياتها وامتدادها وثباتها، وعليه تستندُ أخلاقُها، ومنه تستمدُ الباعثَ على العمل في جميع المجالات.

ورُسُل الله جميعاً بُعثُوا بهذا الأصل، ودَعوا إليه، سواءٌ منهم مَنْ أُرْسلَ إلى قومه خاصةً، أو بُعثَ للناس عامةً، وهو خاتمهم ﷺ.

إنهم جميعاً يأخذون من مشكاة واحدة، ويدعُونَ إلى إله واحد ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1]

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[2]

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[3]

---

(١) الأنبياء:٢٥.

(٢) الزخرف:٤٥.

(٣) الأعراف:١٥٨.

إنه دينٌ واحدٌ، والكون بفطرته مُعَبِّرٌ عنه ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (١)

ومن ثَمَّ كان تكذيبُ أحدهم تكذيباً لهم جميعاً.

قال تعالى في حقِّ نوح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (٢)

وقال سبحانه في حقِّ هود عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ (٣)

وينُصُّ القرآنُ الكريمُ كذلك على أن التفرقةَ بين المرسلينَ كُفْرٌ بهم جميعاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ (٤)

* * *

(١) آل عمران:٨٣ - ٨٥.

(٢) الشعراء:١٠٥.

(٣) الشعراء:١٢٣.

(٤) النساء:١٥٠ - ١٥٢

ثانياً: فِطرية منهجها

إنَّ منهجَ الأنبياءِ في الدَّعْوَةِ إلى الله تعالى واضحُ الدلائل، بَيِّنُ المعالم، مستقيمٌ لا عِوَجَ فيه.. يدعو إلى الحق، ويهدي إلى صراطٍ مستقيم.

إنَّه منهجٌ فطريٌّ في حقيقته، وأدلَّته، وغايته.

إنه المنهج الذي يَدُلُّ الناسَ على صِدْقِ الإخلاصِ لله، وحُسْنِ الاتباع لرُسُلِه عليهم السلام.

يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والاستقامةِ عليه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

اتِّسَاقٌ كاملٌ بين فطرةِ الإنسان وما يُدْعَى إليه.

والإنسانُ خاضعٌ بفطرته، وكلُّ مَن في السماوات والأرض قد أسْلَمَ - طَوْعاً وكَرْهاً - لربِّه ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٢)

واستجابةُ الإنسان - بإرادته لله - وللرسول اتساقٌ مع فطرةِ كُلِّ شيء في

(١) الروم : ٣٠، ٣١.
(٢) آل عمران : ٨٣.

التسبيح بحمد ربِّه ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

وبداهـــةُ الفطرة أنَّ مَن يخلُقُ هو الذي يُعبَدُ، وأن مَن يرزقُ هو الذي يُشكَـــرُ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢)

ومن المُصَادمة للفطرة، والمخالَفَة لها أن يُعبَدَ مَن لا يخلُقُ، وأن يُشكَرَ من لا يرزقُ ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣)

تلك هي دعوةُ الأنبياء في فطرتها وامتدادها مع الزمن، تُتْلَى في كتاب عزيز ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٤)

وهو محفوظٌ بحِفْظِ الله له، لا تنقضي عجائبُه، ولا يَخْلَقُ من كَثرةِ الرَّد، ساطعٌ

---

(١) الإسراء : ٤٤.

(٢) النحل : ١٧-٢٢.

(٣) العنكبوت : ١٧.

(٤) فصلت : ٤٢.

بنوره ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴿٢٣﴾ ﴾ [١]

سَلِ التاريخَ: كَمْ مرَّة تنكَّر الدَّهرُ لدُوَلِ الإسلام، وتسلَّط الفُجَّارُ على المسلمينَ، فأثْخَنُوا فيهمُ القتال، وأكرَهُوا أُمَمَاً منهم على الكُفْرِ، وأحرقُوا الكُتُبَ، وهدموا المساجدَ، وصنعوا ما كان يكفي القليلُ منه لضياعِ هذا القرآن – كُلاًّ أو بعضاً – كما فُعِلَ بالكُتُبِ قبله ؟ لولا أن يَدَ العنايةِ تحرُسُه، فبَقِيَ في وسطِ هذه المَعَامِعِ [٢] رافعاً راياته وأعلامه، حَافِظاً آياته وأحكامه.

بلْ اسْأَل صُحَفَ الأخبارِ اليومية: كَمْ من القناطيرِ المُقنْطَرَةِ من الذَّهبِ والفضَّةِ تُنفَقُ في كُلِّ عامٍ لِمَحْوِ هذا القرآن، وصَدِّ الناسِ عن الإسلامِ بالتضليلِ والبُهتانِ، والخداعِ والإغراءِ، ثم لا يَظْفَرُ أهلُها – من وراء ذلك – إلاَّ بما قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [٣]

ذلك بأنَّ الذي يُمسكه أن يزولَ هو الذي يُمسِكُ السَّماواتِ والأرضَ أن تزولا.

ذلك بأنَّ الله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [٤]

واللهُ بالِغُ أمرِه، ومُتِمُّ نُورِه، فَظَهَرَ وسيبقَى ظاهراً لا يضُرُّه مَن خالَفَهُ، حتَّ يأتيَ

---

(١) الزمر: ٢٣.
(٢) المَعامِعُ : شدَّة الحرْبِ، والجِدُّ في القِتالِ .
(٣) الأنفال : ٣٦.
(٤) الصف : ٩.

أمرُ الله تعالى.[1]

إن القرآنَ الكريمَ - وهو كتابُ الدَّعوةِ ودستورها - يُمسكُ بزمامِ النفوس -وهي تنجذبُ إليه مضيئةً مُشرقةً، آمنةً مطمئنةً، عادلةً معتدلةً - كما تُمسكُ الشمسُ - بإذن ربِّها - لكلِّ ما ارتبطَ بها، وهي تجودُ بأسباب الحياة، وتبعثُ الدِّفءَ والنُّورَ والضياءَ على أهل الأرض.

والذي جعل الشمسَ ضياءً هو الذي جعل القرآنَ نوراً ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾[2]

وبنزول هذا القرآن وحفظه صانَ الله تعالى أمرَ الدعوةِ إليه، وأتاح للأجيال كُلِّها أن ترى الدَّعْوَةَ - في فطرتها وحقيقتها - على ألسنةِ الرُّسُلِ جميعاً؛ حتى لا يظلمها الناسُ، أو تنحرف بها أهواؤهم.

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾[3]

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[4]

---

(١) النبأ العظيم. د : محمد عبد الله دراز، ص ٤٣، ٤٤، ط ٨ سنة ١٤١٦هـ.

(٢) الشورى:٥٢، ٥٣.

(٣) طه:٩٨، ٩٩.

(٤) يوسف:١١١.

ثالثاً: ثباتُها وامتدادُها مع الزَّمن

الإسلامُ هو دِينُ الفطرة. لم يُرسِلِ اللهُ رسولاً إلاَّ به، ولَنْ يقبلَ من أحدٍ دِيناً غيرَه.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠ ﴾ (١)

واللهُ - بما أنزل وحَفِظَ - قد ضَمِنَ لهذه الدَّعْوَةِ أسبابَ البقاء، فكان من خصائصِها (الثبات).

قد يُقتَلُ الدعاةُ وهي حيَّةٌ في نفوسهم، مُمتدَّة بنورِها، لا تموت بموتِ أجسادِهم، بل تحيا من بعدهم، وتُحقق لهم الحياة.

وكم من أُممٍ صارعوها فصرعتهم، وصدُّوا عنها فَضَلَّ سعيُهم، وبقيت مع الزمن كالشمس في الكون، تغربُ لكي تُشرقَ، فيظنُّ الجاهلون بحقيقتها أنها غابتْ ولن تعُود، فإذا ما اشتدَّ ظلامُ الليل ظهرتْ طلائعُها، ورأى الناسُ نَجماً مُتألِّقا في سمائها يُؤذِن بطلوعِها.. وما توقفت الشمس عن عملها، أو انحرفت عن مدارها، ولكن الناسَ يُحجَبُون إذا لفَّهم ظلامٌ، أو غشيتهم ظلمةُ القبور.

---

(١) آل عمران: ١٩، ٢٠.

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [1]

وكثيراً ما يُخْدَعُ الناسُ بصَوْلةِ الباطل، ويُفتَنُونَ بزينته، فيظنون أنَّ الجَوَّ قد خَلا له، وما يدْرُونَ أنهم به مفتُونون.

وقديماً قال الذين يُريدون الحياةَ الدنيا ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [2]، فلما خُسفت الأرضُ بـه وبدَاره استفاق المفتُونـون ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [3]

فالباطلُ لا ثباتَ له وإنْ تطاولَ وعرْبَد، زَبَدٌ لا يَمْكُثُ في الأرض، والحقُّ كالماء ثابتٌ أصيلٌ، نافعٌ مفيدٌ.

وقد يطفو الزَّبَدُ، ويعلُو فوقَ الماء، ويُعلِنُ - في تطاولٍ - أنه غالبٌ منتصِرٌ، ولكن لا يلبثُ أن يبدو على حقيقته غُثاءً، ويذهَبُ جُفاءً، ويبقى الماءُ بأصالته كما جعله الله، وجعل منه كلَّ شيءٍ حَيٍّ.

* * *

وقديماً تطاول فرعونُ أمام الدَّعْوَة إلى الله، وقال في صَلَف أعمى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴿٣٨﴾ ﴾ [4]

---

(١) النور:من الآية ٤٠.

(٢) القصص:٧٩.

(٣) القصص:٨٢.

(٤) القصص:٣٨.

و لم يلبث – حين أدركَهُ الغرَقُ – أن قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [1]

فَبَدَا على حقيقته ضئيلاً هزيلاً خائباً، ومن قبلُ كان يقولُ للناس: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [2]، ويتوعَّدُ مَن يدعوه إلى عبادة ربِّه قائلاً: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [3] !!

وذهب فرعونُ ومَن كان على شاكلته، وبقيت الدَّعْوَةُ إلى الله ممتدَّةً مع الزمان، يُقابلها الطغاةُ فيمضُونَ إلى مصارِعهم، ويمتدُّ ثباتُها إلى نفوسِ الصادقين من أتباعها، فتراهم عند لقاءِ القتلِ يقول الواحدُ منهم؛ فَرِحاً مُستبشِراً: « فُزْتُ وربِّ الكعبة » !!

وما رأينا دعوةَ الله سَكنت قلباً إلاَّ وآثرها على كُلِّ شيءٍ، ورضي أن يموتَ دُونَها، وأن يفوزَ بفدائِها.

أمَّا الطغاةُ فهم كباطلهم، أو كشياطينهم لا ثباتَ لهم.. عند الخطر يتبرَّءون من عقائدهم، ويُعادون مَن أطاعهم أو عاونهم !!

وانظر إلى خُبيب بن عدي ﷺ وهو يُواجه القتلَ:

يقول له أبو سفيان بنُ حربٍ: « أنشدك الله يا خُبيْب، أتحبُّ أنَّ محمداً الآن في مكانك نضرب عُنقَه، وأنت في أهلك ؟ »

فيقول خُبيب ﷺ: « **والله ما أحبُّ أنَّ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه**

---

(١) يونس :٩٠.

(٢) النازعات :٢٤.

(٣) الشعراء ؛ من الآية ٢٩.

تُصيبه شوكةٌ تُؤذيه، وأنا جالسٌ في أهلي »

فقال أبو سفيان: « ما رأيتُ أحداً يُحِبُّ أحداً، كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمَّداً ! »

ويطلب خُبَيْبُ ﷺ ممَّنْ خرجوا لقتله أنْ يَدَعُوه حتى يُصلي ركعتين ! فقالوا له: « دُونَكَ فاركع »، فركع ركعتين أتمَّهُمَا وأحسنَهُما، ثم أقبـــل على القوم يقول: « **أما والله، لولا أن تظنوا أني إنما أطَلْتُ جَزَعاً من القتلِ، لاستكثرتُ من الصلاة** »

الله أكبر.. إعلانٌ عن دعوةِ الله، واستمساكٌ بها، وموتٌ عليها..

ما أعجبَ الإيمان حين تُخالطُ بشاشتُه القلوب !

* * *

بل انظر إلى الصفوةِ من أتباعِ دعوةِ الله، وقد أحاط بهم أهلُ الغدر ليقتلوهم، انظر إليهم وتدبَّر أمرَهم؛ لترى ما صنعتْ دعوةُ الله في هذه النفوس.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: « جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَنْ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالاً يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمْ "الْقُرَّاءُ" فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ، وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَحْتَطِبُونَ [1] فَيَبِيعُونَهُ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ، فَقَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا. قَالَ: وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا - خَالَ أَنَسٍ - مِنْ خَلْفِهِ، فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ، فَقَالَ حَرَامٌ: فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ

(١) الاحتطاب : جمع الحطب.

لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا » [1]

ولنتأمل حالَ أولئك الصَّحْبِ الكرام الذين كتبَ الله لهم الشهادة؛ لنرى أثرَ الدَّعْوَة فيهم..

أوَّل ما يُطالعنا من أحوالهم أنهم:

١- يقرءون القرآنَ، ويتدارسون بالليل يتعلمون:

هذا ليلُهم، ليسَ بلاَه ولا عَابث، وإنما هو مضيءٌ بذكْر الله، مُسبِّحٌ خاشعٌ..

فأيُّ طمأنينة للقلب يجدها هؤلاء الذَّاكرون وهم يتدارسون كتابَ الله ويتعلمونه !

إنهم يتعلَّمون لكي يعملوا، فلا خيرَ في علم لا يصحبُه عمل.

ولننظر إليهم في نهارهم؛ لنرى أثر الدَّعْوَة فيهم.

٢- وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد:

أي: يَضَعُونَهُ في الْمَسْجد مُسَبَّلاً لمَنْ أَرَادَ اسْتعْمَاله لطَهَارَة، أَوْ شُرْب، أَوْ غَيْرهمَا.. وهذا - ولا شكَّ - عملٌ بارٌّ ينتفعُ به المسلمون.

ألاَ تراهم يعملون بما علموا، فَهُم في نهارهم يُطبِّقُونَ ما تدارسوه في ليلهم.

إنهم في الليل يقرءون القرآن ويُدركونَ مقاصدَه، وفي النهار يتحرَّكون بأمره، ويتقلَّبُون بوحيه، ويَسْعَوْن بنُوره.

إنهم كما وصفهم ربُّهم ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [2]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) النور:٣٧.

إنهم عرفوا الطريقَ فتحدَّد العزمُ والسُّلوك..

إنهم أيقنوا أن أنفسَهم لله، لا لغيره، فأعزُّوها بالاتجاه إليه، وشرَّفوها بالإخلاص له، فلم يتوزَّعوا، أو يتميَّعوا، أو يتردَّدوا في اختيار الباقياتِ الصالحات.

إنهم استطاعوا - بفضل الله - أن يكونوا عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [1]

فهذا ليلُهم يُضاءُ بالقرآن، ونهارُهم عَبِقٌ بصالحِ الأعمال.

٣- ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصُّفَّة [2] وللفقراء:

أيُّ نفوسٍ هذه، وأيُّ نمطٍ من الرجال هؤلاء !

إنهم رجالٌ ينتصرُ بهم دِينٌ، وتُبلَّغُ بهم رسالةٌ، وتسعَدُ بهم أمةٌ، وتُعَدُّ لهم جنةٌ.

إنهم رجالٌ انتصروا بدعوة الله على أنفسهم، فجديرٌ بهم أن ينتصروا - بعد ذلك - على كُلِّ ما يحولُ بينهم وبين مرضات ربِّهم.

إن الإنسانَ لا يُخذَلُ إلاَّ من نفسه، ولا يُذَلُّ إلاَّ من حرْصه ((إنك لن تَنصُرَ اللهَ في معركةٍ حتى تنصرَهُ في نفسك، بتغليب أمره على هواك))

وجدير بهؤلاء أن يكونوا دُعَاةً إلى الله تعالى.

٤- فبعثهم النبي ﷺ إليهم، فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان:

ومن صفات هؤلاء الرجال وأحوالِهم نُدركُ حِكمةَ الرسول ﷺ في اختيارهم،

---

(١) الأنعام:١٦٢، ١٦٣.

(٢) أَصْحَاب الصُّفَّة هُمْ : الْفُقَرَاء الْغُرَبَاء الَّذِينَ كَانُوا يَأْوُونَ إِلَى مَسْجِد النَّبِيّ ﷺ وَكَانَتْ لَهُمْ فِي آخره صُفَّة، وَهُوَ مَكَان مُنْقَطِع مِنْ الْمَسْجِد مُظَلَّل عَلَيْهِ يَبِيتُونَ فِيهِ.

وأهم نَمَطٌ من الناس جديرٌ أن يدعو إلى الله بأفعالهم قبل أقوالهم ((ومُعلِّمُ نفسَه ومؤدبُها أحقُّ بالاحترام من مُعلِّمِ الناس ومؤدبهم))[1]

ولكن يبدو أنهم ثمارٌ قد طابت، وأنهم - برضى الله عنهم - قد أصبحوا أهلاً لسلعة الله الغالية.

إنهم دعَوا إلى الله بأبلغ وأقوم ما يدعو إليه داع.

إنهم لم يُعلِّمُوا أبناءَ جيلهم فحسب، بل علَّموا الأجيالَ من بعدهم..

إن الله قد اختارهم دُعَاةً لا لفئة محدودة في عصرهم، بل جعلهم دُعَاةً مع الزمن الممتد إلى يوم الجَمْع..

إنهم في هذه الساعة لا يذكرون أنفسَهم، ولا يقفون عند جراحاتهم، إنهم يذكرون ربَّهم، ويتذكَّرون نبيَّهم..

إنهم يُرْسلون إليه يُبشِّرونه، ولكن مَن يحملُ رسالتَهم ؟ مَن يبلِّغُ عنهم ؟

إنهم يلجئون إلى الله الذي لا يُعجزه شيءٌ لكي يُبلِّغ عنهم.

إنهم لم يصلوا إلى المكان الذي أُرسلوا إليه، وإنما وصلوا إلى أعلا مكان وأكرمه ((فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ، فَقَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا))

رضي الله عنهم ورضوا عنه.. طلبوا من الله أن يبلِّغَ عنهم نبيَّه ﷺ، فكان لهم ما طلبوا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لأَصْحَابه: ((إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا)) ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[2]

اللهم اجمعنا بهم في جنَّات النعيم (آمين).

---

(١) الأدب الكبير لابن المقفع: ١/٤.

(٢) التوبة : من الآية ٧٢.

رابعًا: قِيامُها على الإقناع والحُجَّة

وأتساءل بعد ذلك: هل يمكن أن يكونَ هذا إلاَّ عن اقتناع، ورضى نفس، وحُبٍّ ؟

إنها دعوةُ العقيدة التي تقومُ على الإقناع والرضى، والحُجَّة والبرهان.. وتلك من خصائصها.

إنها دعوةُ الفطرة، والفطرةُ لا تَكَلُّفَ فيها ولا تعسُّف، ولا جَبْرَ ولا إكراه، ولا عُسْرَ ولا حرَج.

ولعلَّ الذين هَالَهُمْ نَصْرُهَا، وأخذ أعينَهُم نورُها - فحاولوا أن يُعلِّلوا سرَّ عزَّتها وامتدادها، وصمودها، وإيثارها على أنفس المؤمنين بها - قد آنَ لهم أن يعودوا إلى الفطرة التي فطر الله الناسَ عليها؛ لكي يظفروا بأنفسهم مؤمنين بها؛ ولكي يجدوا تعليلَ الأمر في أنفسهم، وسرَّه في قلوبهم.

وعندئذ سيحمدون الله كما يحمده المؤمنون، ويقولون شاكرين لربِّهم فضلَه ونِعَمه ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ (١)

* * *

قالوا من قبلُ: إنها انتشرت بالسيف، وسيطرت بالقوة !!

وكان أجدى بهم أن يسألوا أنفسَهم - قبل أن تنطقَ ألسنتُهم -: ولماذا كان السيف في يدها أمضى من كُلِّ قوةٍ متفوِّقةٍ على عدوِّها ؟

---

(١) الأعراف:٤٣.

إنها لم تكن تملك الوفرةَ في العدد، أو التفوُّقَ في العُدَد حين تكالب الأعداءُ عليها، وأحاطوا بها.

وقد أُحيطت بالأعداء من أوَّل أمرها، والتقى على حربها جندُ الباطل وأولياءُ الطاغوت، فظهرتْ عليهم وعَلَتْ، وانطووا أمام مدِّها كما ينطوي الظلامُ الخائف الوَجِلُ أمام الضوءِ الزاحفِ المنتشر، مع أن العربَ - حين عرض الرسولُ ﷺ دعوتَه عليهم - كانوا يخافون على أنفسهم أن يتخطَّفهم مَن حولهم إنْ هُمُ استجابوا له، وآمنوا برسالته ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ (١)

والقرآن الكريم يُذكِّرُ المؤمنين بنعمة الله ونَصْره وتأييده إذ كانوا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢)

الذين كانوا على هذا القَدْر من القِّلة والضعف، استجابوا لله وللرسول، وأخلصوا وصدقوا، وانتصرت دعوةُ الله في نفوسهم، فانتصروا على أعدائهم، وامتدوا بنورها يضيئون حياةَ الناس بالعدل والبرِّ والرحمة.

فآثروها على أنفسهم مع حاجتهم وتكالب الأعداء عليهم !

آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فلم يكن النصرُ عندهم بأفضل من الشهادة، ولم يكونوا يَرَوْنَ تربُّصَ العدو بهم إلاَّ إحدى

(١) القصص: من الآية ٥٧.
(٢) الأنفال : ٢٦.

الحسنيين: إما أن يفوزوا بنصرٍ أو شهادة.. فإن كانت الشهادةُ فنِعمَّا هي، وإن كان النصرُ فهو ثابتٌ، فلا يُرَى إلاَّ مُقيماً للصلاة، مُؤدِّياً للزكاة، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، يَدينُ بالفضلِ لله، فلا يزهو بنصرٍ ولا يتيه، بل يزداد تواضعا لله في البِرِّ بعبادِه.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

فهل يمكن إلاَّ أن تكون الدَّعْوَةُ – في ذاتها – هي المؤثرةُ في نفوس هؤلاء، وهم يرون أن أفضل ما ينالهم منها الشهادة في سبيلها؟!

إن الدَّعْوَةَ التي تُفرَضُ على الناس بالقوة لا يمكنُ أن تعيشَ بين الناس حين ينتهي عملُ القوة، وما رأينا إنساناً آمن بها ثم انصرفَ عنها، أو حتى مُكْرَهاً على تَرْكِها، بل رأينا صوراً شتَّى من الإكراه تقعُ على المؤمنين بها، فلا يزيدهم إلاَّ استمساكاً بها، وكم من مُعلِنٍ عن ولائه لها وهو يواجه الموتَ أو القتل في سبيلها.

إن الفئةَ التي دخلت الإسلامَ في بدء الدَّعْوَة، وظلَّت طيلةَ الفترة المكية تلقى ألواناً من العذاب، وصنوفاً من البلاء، لم يُرهبها سيفُ الرسول ﷺ على الدخول في هذا الدين، بل أرهبها عذابُ قريشٍ على الخروج منه – وهي تملك أسبابَ القوة والغلبة – فلم تُفلح أمام الإيمان المسالم، ولم تستطع أن تعودَ بإنسانٍ واحدٍ إلى الكُفر بعد الإيمان.

وقد هاجر الرسولُ ﷺ وأصحابُه بعد أن اجتمعت قريش على قتله، وتركوا دورَهم وأموالَهم ابتغاء مرضات الله..

إنَّ الذين آمنوا بهذه الدَّعْوَة آثروها على أنفسهم وأموالهم، ولم تستطع ألوانُ

(١) الحج:٤١.

الإغراء والبلاء أن تصرف عنها واحداً منهم.

إنَّ الإكراه قد وقع للصَّدِ عنها، ولم يقع – قط – للدخول فيها..

إنها عقيدةٌ تُعرَض على الفكر والقلب؛ ليقطع فيها بالقبول أو الرفض..

سبيلُها الحُجَّة والإقناع، وآياتها تُتلَى في كتاب.

وإرادة الإنسانِ – إزاء ما يُقرأ أو يُسمَع – تصيخ للكلمة نفسها، دون خُضوعٍ لمعجزاتٍ مادية تبدو معها إرادةُ الإنسان وكأنها مُنقادة ومُرغمة على الخضوع..

لقد قدَّمت المعجزاتُ الماديةُ – قبل الرسالة الخاتمة – عوناً للإنسان على إدراك الحقِّ الذي يُدعَى إليه، ولكن المعجزة في الرسالة الخاتمة لم تكن على نحو ما سبق.

إن المعجزةَ المادية يتأثرُ بها مَن رآها، أو عاش في عصرها، فهي تناسبُ الرسالات الموقوتة، وتُناسب إنسانَ عصرِها، أما في الدَّعْوَة الخاتمة فليس إلاَّ الكلمة، والكلمةُ – وحدها – محفوظةٌ في كتابٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ليقعَ الإقناعُ من داخل النفس، لا من خارجها.

وكم من نفوسٍ استجابت لدعوة الله بآية تُليت، وكم من سيوفٍ رُفعت عليها ثم نُكست خاشعة أمام سُلطانها.

ومَن رأى عمر ﷺ وهو يمضي باحثاً عن محمد ليقتله – لَيَأْخُذه العجبُ وهو يراهُ يتحوَّلُ بآياتٍ تُليت، فيمضي باحثاً عن محمدٍ رسولِ الله ﷺ؛ ليؤازره ويناصره.

إنَّ هذا التحوُّل في نفوسٍ عُرفت بإصرارها وتمسكها بما ورِثت من تقاليدها – تحوّلها إلى موقف التأييد والجهاد، والتضحية في سبيل ما آمنتْ به – جديرٌ أن يدفع النفوسَ إلى معرفة الحقيقةِ والوقوفِ عندها.

وكُلُّ تأويلٍ لنصرها يَبعُدُ عن فطرة الدَّعْوَة لا يثبتُ أمام النظر والتمحيص.

إنها قد غزت القلوبَ حيثُ لا دولة ولا سُلطان، وطوَّعتها للخير، فوجدت نفسَها تحيا بها، ولا ترى الحياةَ بدُونها.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١)

إن الدَّعْوَة الإسلاميةَ لم تعتمد – قط – في نشرِها على الإكراهِ والبطش.

والقوةُ – مهما بلغت – أعجزُ عن أن تُقيمَ عقيدةً، أو تحرُسَ دعوةً، ما لم يكن للعقيدة أصالتُها، وللدعوةِ عواملُ بقائها.

وكم هُزِم المسلمون وبَقِيَ الإسلامُ. وكم دِيسَتْ ديارُه فسيطر على الغاصبين نُورُه، فتحوَّلوا من العداوة إلى الحُبِّ، ومن الحربِ عليه إلى النُّصرةِ والتأييد له.

وهذه آياته البيِّنات تُتلَى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ (٢)

يقول الإمامُ الرازي في تفسير هذه الآية: ((إنه تعالى لَمَّا بيَّن دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للمعذرة، قال بعد ذلك: إنه لم يبق – بعد إيضاح هذه الدلائل – عُذرٌ للكافر في الإقامة على كُفره، إلاَّ أن يُقْسَرُ على الإيمان، ويُجبَر عليه، وذلك ممَّا لا يجوز في دار الدنيا – التي هي دار الابتلاء – إذ أن في القهر والإكراه على الدين بُطلانُ معنى الابتلاء والامتحان)) (٣)

---

(١) الأنعام : ١٢٢.

(٢) البقرة: من الآية ٢٥٦.

(٣) تفسير الرازي : ٣/ ٤٥٤.

ولعلَّ الذين حاولوا أن يُعللوا انتصارَها بعِللٍ تُرضي ما تحمله صدورُهم من حسدٍ وحقدٍ، لعلَّهم أدركوا أن هذه العِلل قد أساءتْ إليهم وهم الذين يزعمون التمسكَ بالموضوعية، ويؤمنون بنتائج التجربة والملاحظة.

لعلَّ التجاربَ قد أقنعتهم أن ما يُرددونه - من اعتماد هذه الدَّعْوَةِ على وسائلَ خارجةٍ عن فطرتها - فاسدٌ يُكذبه الواقعُ، باطلٌ يزهقه الحقُّ، فجاءت تصريحاتُهم - من بعد - كاشفةً عن حقيقة ما كانوا يُخفون من قبل.

ومن أبيَن التصريحات الدَّالَّة على ما في صدورهم، والكاشفة عن عُمق إدراكهم لسرِّ انتصارها.

* **يقول "غلادستون "رئيس وزراء بريطانيا السابق:** ((ما دام هذه القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيعَ أوربا السيطرة على الشرق)) [1]

* **ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مئة عام على استعمار الجزائر:** ((إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، ومن ثَمَّ يجب أن نُزيل القرآن العربيَّ من وجودهم، ونقتلع اللسانَ العربي من ألسنتهم)) [2]

* **ويقول "مورو بيرجز "في كتابه "العالم العربي المعاصر":** ((إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام. يجب محاربة الإسلام؛ للحيلولة دون وَحدة العرب التي تؤدِّي إلى قوَّتهم؛ لأن قوة العرب تتصاحب - دائماً - مع قوة الإسلام وعزَّته وانتشاره. إن

(١) دمَّروا الإسلام أبيدوا أهله: ص ٣١.
(٢) المرجع السابق نفسه.

الإسلام يُفزعنا عندما نراه ينتشر بيُسْرٍ في القارة الأفريقية)) [1]

* **ويقول المُنصِّر "تاكلي"**: ((يجب أن يُستخدَم القرآنُ - وهو أمضى سلاحٍ في الإسلام - ضدَّ الإسلام نفسه؛ حتى نقضي عليه تماماً. يجب أن نُبيِّن للمسلمين أنَّ الصحيحَ في القرآن ليس جديداً، وأنَّ الجديدَ فيه ليس صحيحاً)) [2]

* **ويقول "مرماديوك باكتول"**: ((إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشروا بها سابقاً، بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول؛ لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام رُوح حضارتهم)) [3]

* **بل يقول "صمويل زويمر"** رئيس جمعيات التنصير، في مؤتمر القدس المنعقد عام ١٩٣٥م: ((إن مهَّمة التبشير التي نَدَبْتُكُم دولُ المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هدايةً لهم وتكريماً، إن مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام؛ ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأُمم في حياتها، وبذلك تكونون - بعملكم هذا - طليعةَ الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية.. لقد هيأتم جميعَ العقول - في الممالك الإسلامية - لقبول السير في الطريق التي سَعيتم إليه، ألاَ وهو إخراج المسلم من الإسلام.. إنكم أعددتم نشئاً لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، أخرجتم المسلمَ من الإسلام و لم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشءُ الإسلامي مطابقاً لما أراده له الاستعمار، لا يهتم بعظائم، ويحب الراحةَ والكسل، ويسعى للحصول على الشهوات بأيِّ أسلوب، حتى أصبحت الشهواتُ هدفَه في الحياة، فهو إن تعلَّم فللحصول على

(١) المرجع السابق: ص٤٢.
(٢) المرجع السابق: ص٥٠.
(٣) المرجع السابق: ص٥١.

الشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات.. إنه يجود بكُلِّ شيء للوصول إلى الشهوات.. أيها المبشرون: إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه أ.هـ))[1]

وأنت ترى - فيما نقلتُ لك وفيما نشاهده - أن كلماتهم قد جاءت معبرةً عن فَهْم صحيح لفطرة الإسلام، ومعرفة لعوامل القوة الحقيقية في نفوس المسلمين، فجاءت خُططهم مبنيَّة على فهم ومعرفة.. جاءت لتدمر الإسلام أولاً في نفوس المسلمين، واستعمارها من داخلها، وهم موقنون أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على شبر من أرض المسلمين وإبقائه في أيديهم، قبل أن يُحسنوا الاستيلاء على نفوس المسلمين وإبعادهم عن مصدر قوتهم (وهو الإسلام).

وهذا ما يُفسِّر لنا سِرَّ التآمر على كُلِّ صوتٍ يرتفع مُنادياً به أو داعياً إليه.

وكُلُّ ما تراه أمام نظرك - من سَطوة للعدُّو على أرض الإسلام - قد مهَّد له بأساليب متنوعة في إبعاد المسلمين عن دينهم؛ لاشتغالهم بأنفسهم، وتحقيق التنازع بينهم، فيفشلوا وتذهَب ريحُهم.

بعد أن مهَّد العدو لإسرائيل، وصنع لها نصراً تَملت به وبطرت (عام ١٩٦٧م) ذهب وزير خارجيتها "أبا إيبان" في الشهر الأخير من هذا العام؛ ليحضر جلسات الأمم المتحدة، فألقى محاضرةً في جامعة "برنستون"فكان مما قاله فيها: ((يحاول بعضُ الزعماء العرب أن يتعرَّف على نَسَبه الإسلامي بعد الهزيمة الأخيرة، وفي ذلك الخطر الحقيقي على إسرائيل، ولذا كان من أوَّل واجباتنا أن نُبقي العرب على يقين راسخ بنسبهم القومي لا الإسلامي))[2]

إنهم يدركون - تماماً - مصدرَ القوة في نفوس المسلمين، ويَعُونَ تجربةَ التاريخ،

---

(١) المرجع السابق:ص٥٣.

(٢) الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي، ماجد الصلاتي : ص ٣٢٨.

ويعلمون أن أمضى أسلحتهم وأبعدَها أثراً في تحقيق نصْرٍ لأنفسهم أن يكون المسلمون في بُعد عن الإسلام وتنكُّرٌ له.

من هُنا كانت المؤامرات والشعارات والمذاهب الدَّخيلة، سواء في مجال الاعتقاد، أو الاقتصاد، أو الاجتماع، أو السياسة.. وكان الهدف منها - جميعاً - قيام بديل عن الإسلام تُشغَلُ به النفوس، وتُقام باسم الشعارات ثوراتٌ تُلقَّب بـ "التَّقدميَّة"، ويُوصَفُ غيرُها بـ "الرجعية"، ويقع صراعٌ بين المسلمين أنفسهم في المفاضلة بين هذا وذاك، والمخاصمة، بل القتال !!

وهنا تكون الخسارة عليهم جميعاً، والربح للعدو وحده.

وليست الماسونية، أو العلمانية، أو الاشتراكية، أو القومية، إلاَّ أدوات يحقق بها العدوُّ مقاصده في تدمير الإسلام وأهله.

والواقع المعاصر - بنتائجه - ماثلٌ أمام الأعيُن، لا يحتاج إلى دليل.

والعدوُّ - بعد ما هُيِّئت له كافَّةُ السُّبل لإبعاد الإسلام عن الساحة - يُعلن - في صراحةٍ وبلا خفاء - أن الخطر عليه يكمُنُ في تعرُّف العرب على نَسَبِهِم الإسلامي.

وكأنه قد ضمن - قبل جولته في عام ١٩٦٧م - أن العربَ قد بَعِدوا تماماً عن هذا النسب، فمضى يصُولُ في فراغ لم يُبال فيه بعَدَدٍ ولا كَمٍّ.. **فلا قيمة لعدد المسلمين بلا مضمون، وهم - بغير إسلامهم - كمٌّ مُهمل لا يُحسب له حساب،** وهو يعلم أنه قد ربِح هذه الجولةَ في غيبة الإسلام وإبعاده عن الساحة، بل بعد التآمر على المنتسبين إليه في صورة مفتعَلة لم يسبق لها نظير.

ولم تكن نتيجة التآمر إلاَّ لصالحه..

وخشي - بعد هذه الجولة - أن يفيق العرب، وأن يتلمَّسوا سِرَّ نكبتهم، وأن يعودوا - وقد بطلت أمامهم الشعارات الكاذبة التي أرْدَت بهم إلى نكبةٍ لم يسبق مثلها في التاريخ - أن يعودوا إلى موطنِ عزِّهم، وإلى شرف نَسَبهم، وهم يريدون للعرب أن يعتزُّوا بأيِّ شيءٍ لديْهم إلاَّ الإسلام، وأن يبتغوا العِزَّ في أيِّ ماضٍ لهم غير ماضي الإسلام.

إنه يدرك - تماماً - أين يكمُن الخطر.

ولستُ أدري هل هي نشْوةُ النَّصْر؟ أم اطمئنانه إلى بلاده، وعُمق البُعد عن الإسلام هي التي جعلته يقول هذا التصريح المخالف لطبيعته في المكر والخبث والدهاء: « إن الخطر الحقيقي على إسرائيل أن يتعرف العربُ على نسبهم الإسلامي » ؟!

ولعلَّ الأصوات التي ارتفعت - مجرد الأصوات - بعد لعنة ١٩٦٧م تُطالب بالعودة إلى الله قد أزعجته.

وهل هناك طريقٌ لعِزِّ أُمَّتنا غير الفرارِ إلى الله والتمسك بدينه؟!

إن إسرائيل تعرف أن ضمانَ وجودها لا يكمن في اتفاقٍ بينها وبين الدول التي تُحيط بها، بقَدْر ما يكمن في إضعافِ قوَّة الإسلام في المحيط التي تعيش فيه، فطالما الرُّوح الإسلامية باقية وقوية في هذا المحيط، فإن أَمَانَ إسرائيل - من وجهة نظرها، وهو في الواقع كذلك - مهدَّدٌ بخطرٍ يوماً ما. (١)

« فأزمةُ الشرق الأوسط - كما يسمُّونها - ليست هي الأزمة بين إسرائيل والبلاد العربية، وإنما هي أزمةُ الإيمان بالله، أزمة الإسلام في وجوده وفي بقائه في هذه البلاد، هي أزمته في مطاردته، وفي إضعاف الترابط على أساس منه في المنطقة.

(١) نقلاً عن: خمس رسائل للشباب المسلم، محمد البهي، ص ١٤.

فالأزمة باقية ومُتحجِّرة - في ظاهرها - بين إسرائيل والعرب، وفي حقيقة أمرها هي بين أَمْنِ إسرائيل ووجود الإسلام، حتى يضعف الإسلام بفعل المطاردة "الثورية"لقِيَمه ولمؤسساته، ولمبادئه ورجاله، وهذه المطاردة الثورية للإسلام تزداد عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة في النُّظم الثورية، والإجراءات التي تُتَّخَذ ضد الكتاب الإسلامي، والمؤسسات، والمعاهد والمنظمات الإسلامية.

ومنطق الصهيونية العالمية هو الإبقاء على هذه المطاردة للإسلام، بالمحافظة على استمرار هذه النُّظم الثورية في الحُكم، وتوجيه الفريقين - أصحاب الماركسية الراديكالية، وأصحاب الرأسمالية العلمانية معاً - ليس فقط لصالح إبقاء هذه النُّظم في منطقة الشرق الأوسط، بل لقبول المزيد منها، أو للسعي إلى المزيد منها في هذه المنطقة.

والمتوقَّع - حسب المنطق الصهيوني - أن يزداد عددُ نُظُم الحُكم الثوري في هذه المنطقة، وبالتالي تشتد المطاردة للإسلام كلما مرَّ الزمن على هذه الأزمة المُتحَجِّرة المتحركة، فهي مجمَّدة في وضعها السياسي والعسكري، ولكنها متحركة بعُنف في وضعها الأيديولوجي ضد الإسلام »[1]

إن العدوَّ يعرفُ تماماً متى ينحَسِرُ مَدُّه وتقعُ هزيمته، فهو يباعد بينه وبينها، بإبعاد المسلمين عن أسباب النصر، وهو بخيرٍ ما كثُرت الشعارات بعيداً عن الإسلام، ولَهَا بها اللاَّهُون، وعبثَ العابثون.

لقي وزيرُ الدفاع الإسرائيلي - في إحدى جولاته - شباباً مؤمناً في حيٍّ من أحياء قريةٍ عربيةٍ باسلةٍ، فصافحهم بخُبث يهودي غادر، غير أن الشبابَ المؤمن أَبَى أن يُصافحه، وقال له: « أنتم أعداء أُمَّتنا، تحتلون أرضنا، وتسلبونا حريتنا، ولكن يوم

(١) المرجع السابق:ص١٧.

الخلاص منكم لا بُدَّ آتٍ بإذن الله؛ لتتحقق نبوءة الرسول ﷺ »

فابتسم "دايان" الماكر، وقال: « حقاً، سيأتي يوم نخرج فيه من هذه الأرض، وهذه نبوءة نجد لها في كُتبنا أصلاً، ولكن متى؟ »

واستطرد اليهودي الخبيث قائلاً: « إذا قام فيكم شعب يعتزُّ بتراثه، ويحترم دينه، ويُقدِّر قِيَمه الحضارية، وإذا قام فينا شعبٌ يرفض تراثه، ويتنكرُ لتاريخه.. عندها تقوم لكم قائمة، وينتهي حُكم إسرائيل »[1]

وصدق الله العظيم ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[2]

وعند الاستجابة أو الطواعية لما يودّه هؤلاء نفقد النُّصرة والمُعين.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾[3]

إنه القرآن تُرى آياتُه في واقعٍ عمليٍّ يشهد أنه الحق.

ولكن لماذا كُلُّ هذا العداء؟!

هل لأن الدَّعْوَة إلى الله تتربَّصُ بأحدٍ سُوءً؟ أم لأن الإسلام - دين الله للعالمين - يُعلي جنساً على جنسٍ، ويدعو لغير الرحمة بالناس جميعاً ؟!

---

(١) فصل الدين عند الدولة ضلالة مستوردة، يوسف العظم:ص٦٣، ٦٤.

(٢) البقرة: من الآية ١٠٩.

(٣) البقرة :١٢٠.

لا وربك.. إنهم يعرفون حقيقتَه، ولكنه البغي وطلَب العُلو في الأرض بالفساد.

ولو تجرَّد جميعُ الناس من أهوائهم لوجدوا أنفسَهم مع الإسلام، وتلك دعوته تحملها آيةٌ من آياته.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) آل عمران:٦٤.

خامساً: غايتُها الرَّحمة للعالمين

ومن خصائص الدعوة إلى الله أنها ((دعوةٌ من الله وإلى الله)).

لذا فإنها تبرأُ من العُنصرية في شتَّى صُورِها، فهي ليست لإعلاءِ جنسٍ على جنس، ولا لسيطرةِ قومٍ على قوم.

- هي لإعلاءِ كلمةِ الله.

- ولإقامةِ ميزانِ الله في الأرض؛ ليقومَ الناسُ بالقِسط.

- هي لتعريفهم بأنفسهم؛ صَوْناً لهم من الكِبْرِ والبغي والتسلط.

- وتبصيرهم بعاقبتهم؛ حتى لا يعودوا فريسةَ التنافس المسعُور على التكاثر في دارٍ متاعها قليل.

وكُلُّ تنافسٍ في غير سبيل الله مُثيرٌ للفسادِ، مُقطِّعٌ للروابط، مُهلِكٌ للعباد.

وكُلُّ تنافسٍ في الإقبال على الله يزيد من مودَّةِ الناس وبِرِّهم، وإيثارهم ومُؤازرتهم.

- هي لحياتهم جميعاً؛ حتى لا يموت غنيُّهم بالتُّخمة، ويهلك فقيرُهم بالمَسْغَبة.

الدَّعْوَة إلى الله تعني: الفرارَ إلى الله؛ حتى تبرأ النفوسُ من نيِّة السُّوء، ويَنْعَم الناسُ بطُهْرِ السلوك.

وإذا عرف الناسُ ربَّهم لزموا خشيتَه، وإذا تدبَّروا نِعَمَهُ أعلنوا شُكْرَه، وإذا استجابوا لدعوةِ الله نَعِمُوا بالحياة، وسَعِدُوا بالنجاة.

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (١)

* * *

إن غايةَ هذه الدَّعْوَة هي الرحمة بالناس جميعاً ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٢)

ولا رحمةَ بغير إيمانٍ بإلهٍ واحدٍ تنتهي معه جميعُ النـــزعات العنصرية في شتَّي صُورها، فلا يتفاضل الناسُ فيما بينهم بجنس ولا لون، ولا بحَسَب ولا نَسَبٍ؛ لأن أصلَهم واحدٌ، وربَّهم واحد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣)

إنه دينٌ ينشُدُ التعارفَ بين الناس جميعاً، فلن يُعاديه إلاَّ ذو هويً يُريد أن يَفلت من ضوابط الحق والعدل.

---

(١) طه :١٢٣- ١٢٧ .

(٢) الأنبياء :١٠٧.

(٣) الحجرات :١٣.

إن الرحمةَ لا تقومُ مع ظُلم الناس بعضهم لبعض، فلا بُدَّ من قيام العدل سبباً من أسباب الرحمة، ولا بُدَّ أن تتحدَّد الحقوق وأن تُعرَف الواجبات؛ حتى تكون الرحمة معنىً إيجابياً يُرى في إقرار الحقِّ وإقامة العدل.

والإيمان بالله الواحد الأحد هو أقوى أسباب الرحمة، بل هو الأصل الذي لا تقوم ولا تتحقَّق إلاَّ به؛ لأن ضوابط الحق والعدل لا تكون إلاَّ من الله الغنيِّ عن العالمين، الذي أحاط بكُلِّ شيء علماً، وأعطى كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثم هدى.

ولن يكون إيمان بغير الرضى بحُكمه، وخضوع النفوس لشَرعه، وعدم اتِّباع الهوى في رغبات النفس أو مصالح الغير؛ فإن اتباعَ الهوى يُضلُّ عن سبيل الله، والضلال عن سبيل الله لا يكون إلاَّ بنسيان يوم الحساب.

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

إن الرحمةَ التي تنشُدها دعوةُ الله للعالمين رحمةٌ تقوم على ضوابط تُحدَّدُ بها الطيبات، وتُعرَف الخبائث، ويتبيَّن الحلال والحرام، وتُحترَم الحقوق، وتُصان الواجبات.

ولقد حدَّدت الدَّعْوَةُ منطقَها العمليَّ في تحقيق الرحمة بين الناس في قول الرسول ﷺ: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ منْ الظُّلْم؛ فَإِنَّ ذَلكَ نَصْرُهُ » (٢)

---

(١) ص:٢٦.

(٢) رواه البخاري .

منطقُ الدَّعْوَة على لسان خاتم الرُّسُل ﷺ – كما تراه – إيجابيٌّ في تحقيق الرحمة، عمليٌّ في فَرْض أسبابها ورَفْع موانعها.

❁ فكُلُّ ما يحُول بين تحقيق المودَّة والتراحم بين الناس تنهى الدَّعْوَة عنه، وكُلُّ ما من شأنه أن يُحقِّقَ البِرَّ والرحمة بينهم تأمُر به وتدعو إليه.

فالسخريةُ، واللَّمْزُ، والتنابز بالألقاب، والغِيبة، والنميمة، والظلم، والغدر، والفحشاء والمنكر.. أمورٌ تُثير الشحناء، وتُحقق البغضاء، وتُدمِّرُ الرَّوابط، وهي في نظر الإسلام محرماتٌ ينهى عن الاقتراب منها، أو الوقوع فيها.

والعدلُ، والبرُّ، والإحسانُ، والصدقُ، والصبرُ، والحلمُ، والوفاءُ بالعهد، طيبات يأمُرُ الإسلامُ بها ويدعو إليها ﴿ ❁ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١)

عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ " أكثمَ بن صيفي " مخرج النبي ﷺ، فأراد أن يأتيَهُ، فأبى قومُه أن يدعوه، وقالوا: أنت كبيرُنا، لم تكن لتَأت إليه! قال: فليَأته مَن يبلغه عني ويبلغني عنه، فانتَدَبَ رجلان، فأتيا النبي ﷺ، فقالا: نحن رُسُلُ أكثم بن صيفي، وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: « **أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأمـــا ما أنا فأنا عبد الله ورسوله** » قال: ثم تلا عليهم هذه الآية ﴿ ❁ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ

(١) النحل: ٩٠.

﴿ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ قالوا: اردد علينا هذا القول، فردَّده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثمَ فقالا: أبَىَ أن يرفَعَ نَسَبَه، فسألنا عن نَسَبه فوجدناه زاكيَ النَّسَب، وسَطاً في مُضَر، وقد رَمَى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهُنَّ أكثمُ قال: « إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رُؤوساً، ولا تكونوا فيه أذناباً. أ.هـ »[1]

❁ وما من أمْرٍ نهى الإسلامُ عنه إلاَّ ويتخلَّف معه سببٌ من أسباب التراحم، وما من أمْرٍ دعى إليه إلاَّ ويكون عاملاً من عوامل الرحمة بينهم.

فالصلاة يقومُ بها التراحم بين الناس، وإن ضُيِّعَت فَقَدَ الناسُ نعمةَ اللقاء على الله والسلام والنقاء والطُّهر.

والزكاة إنْ ضُيِّعَت فَقَدَ الناسُ نعمةَ التراحم بينهم، فهَلَك غنيُّهم بالتُّخمة، وأُحيطَ بالبُغض والكراهية، ومات فقيرُهم بالمَسْغَبة، وفَقَدَ نعمةَ الأمن والسَّلام..

والإيمانُ – بمقوماته – إنْ فُقِدَ بين الناس، وقعَ التنافسُ المسعور على حُطام الحياة وزينتها، وخسر الناسُ دُنياهم وآخرتهم.

فكُلُّ ما أَمَرَ الله به أَمَرَ به رحمةً بعباده، وكُلُّ ما نَهَى عنه نَهَى عنه رحمةً بعباده، وهو غنيٌّ عن العالمين، لا تزيدُ طاعتُهم في مُلكه شيئاً، ولا تُنقِصُ معاصيهم من مُلكه شيئاً، إنما هي الرحمةُ بهم، يأمر الله بها ويُجازي عليها، وهو الرحمنُ الرحيم.

روي البخاريُّ ومسلمٌ عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « لا

(١) تفسير ابن كثير : ٤/٥٩٦.

يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لا يَرْحَمُ النَّاسَ » [١]

❖ ولم تكن الرحمة المنشودة في منطق الدَّعْوَة لبني آدم وحدهم، بل تمتدُّ إلى كُلِّ ذي كَبد، ففي الحديث المُتَّفق عليه، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « بَيْنَا رَجُلٌ بطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَــزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ [٢] يَأْكُلُ الثَّرَى [٣] مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي. فَنَــزَلَ الْبِئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لأَجْرًا ؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ [٤] » [٥]

وفي رواية أخرى: « أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا [٦] رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ [٧] بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ [٨] لِسَانَهُ مِنْ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا [٩] فَغُفِرَ لَهَا » [١٠]

وفي الحديث المُتَّفق عليه، عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: « دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ، رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ [١١] الأَرْضِ » [١٢]

---

(١) متفق عليه.
(٢) اللَّهْث: هُوَ ارْتفاع النَّفَس مِنْ الإِعْيَاء، والمعنى أَخْرَجَ لِسَانه مِنْ الْعَطَش.
(٣) يأكل الثرى: أَيْ يَلْعَق التُّرَاب النَّدِيّ.
(٤) أَيْ كُلّ كَبِد حَيَّة، وَالْمُرَاد رُطُوبَة الْحَيَاة، أَوْ لأَنَّ الرُّطُوبَة لازِمَة لِلْحَيَاةِ فَهُوَ كِنَايَة.
(٥) متفق عليه، واللفظ للبخاري.
(٦) الْبَغِيّ: هِيَ الزَّانِيَة.
(٧) يَطِيف: أَيْ يَدُور حَوْلهَا.
(٨) أَدْلَعَ لِسَانه: أَيْ أَخْرَجَهُ لِشِدَّة الْعَطَش.
(٩) الموق: هُوَ الْخُفّ، فَارِسِيّ مُعَرَّب.
(١٠) رواه مسلم.
(١١) خَشَاش الأَرْض: هَوَامّ الأَرْض وَحَشَرَاهَا مِنْ فَأْرَة وَنَحْوهَا.
(١٢) متفق عليه.

روي أبو داود بإسناد صحيح، عن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال: « أَرْدَفَنِي [1] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ [2] قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: أَفَلا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا ؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ [3] » [4]

إنها الرحمةُ بكُلِّ شيء، وهي لا تُنْزَعُ إلاَّ من شَقِيٍّ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [5]

● إنه ينشُدُ الرحمةَ للناس جميعاً، ويرجو لهم الفوزَ بالجنة والنَّجاةَ من النار، يرجوها لهم، ويأسي إنْ فوَّتُوها على أنفسهم ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [6]

إنه ينشُدها لهم في إيمانهم بربِّهم، وإسلامهم لخالقهم، ورحمتهم بأنفسهم.

روي البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: « كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ

---

(١) أَرْدَفَنِي: أَيْ حَمَلَنِي خَلْفه عَلَى ظَهْر الدَّابَّة.

(٢) حائش النخل: نَخَلات مجتمعة.

(٣) تدئبه: تتعبه بكثرة ما تستعمله.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) الأنبياء : ١٠٧.

(٦) الكهف: ٦.

ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْ. فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ - وَهُوَ عِنْدَهُ - فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ » (١)

* وأنت تسمعُ من فَمِه الطاهرِ ﷺ ما يُحقّق أسبابَ الرحمة ويَحُولُ بين تقاطع الناس وتدابُرهم.

روي مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » (٢)

أرأيتَ كيف تُقامُ الحواجزُ بين الناس وبين الإساءة إلى أنفسهم، في أيِّ صورةٍ من الصُّور ؟

أرأيتَ كيف يأتي الجزاءُ وِفاقاً لَمن أبى التَّراحُمَ بالإساءة أو الظلم ؟

* ولا يكتفي - في مجال التراحم - بالإمساك عن أسباب القطيعة والتدابر، بل نراه ﷺ يأمرُ بتحقيق أسبابِ الرحمة بالعمل الإيجابي.

ففي الحديث المُتّفَق عليه، عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: يَعْمَلُ بِيَدِهِ،

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنْ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ » (١)

الله أكبر.. عملٌ إيجابيٌّ يُحقق المودَّةَ والرحمة أو إمساكٌ عن الشر؛ حتى لا يقعُ ما يُنافيها !

* بل تراه ﷺ يربطُ عواملَ البرِّ والرحمة بالإيمان، ويجعل من مقتضياته أن يكونَ المؤمنُ إيجابياً في تحقيق الخير والكَفِّ عن الشَّر؛ حتى تتمَّ الرحمةُ للناس جميعاً.

روي مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النبي ﷺ قال: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخر فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخر فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » (٢)

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « وَاللَّه لا يُؤْمِنُ، وَاللَّه لا يُؤْمِنُ، وَاللَّه لا يُؤْمِنُ. قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّه ؟ قَالَ: الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ » (٣)

وفي رواية لمسلم: « لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ (٤) » (٥)

* * *

أرأيتَ.. إن غاية الدَّعْوَة إلى الله الرحمةُ بين الخَلْق، بأسلوب عمليٍّ يقومُ على العدل بين الناس بلا تَفرقةٍ، وعلى الحقِّ بلا مُحاباةٍ أو مُجاملةٍ..

وهذا نداؤها في آيتين من سورتين متجاورتين، سورتَي النساء والمائدة:

﴿ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) الْبَوَائِق: جَمْع بَائِقَة، وَهِيَ الدَّاهِيَة وَالشَّيْء الْمُهْلِك، وَالأَمْر الشَّدِيد الَّذِي يُوَافِي بَغْتَة.

(٥) رواه مسلم.

أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

إنَّ فواتَ العدل نذيرُ فُقدانِ الرحمة، ومجاوزة الحقِّ دليلُ تسلُّط الهوى.

والعدلُ لا يُترَك تحديده لأصحابِ المصلحةِ أنفسِهم، فإنَّ الناسَ لا يسلمون من نزغات الهوى، وهم ينظرون إلى قضاياهم من خلال مصالحهم، فما يراه هؤلاء عدلاً بالنسبة لهم، قد يراه الآخرون ظُلماً.

من هنا كان من رحمةِ الله بخَلْقه أنْ أرسل الرُّسُل بالبيِّنات، وأنزل معهم الكتابَ والميزانَ؛ ليقومَ الناسُ بالقسط.

فكانت الدَّعْوَةُ إلى الله - بهذا - مجرَّدةً من كُلِّ نقْصٍ يعتري دعواتِ البشر؛ لأنها ليست من وَضْعِ أحدٍ منهم، بل هي من الله ربِّ العالمين، وهو - وحده - الذي ليس كمثله شيء، ولم يكن له كُفُواً أحد، والناس - بعد ذلك - أشباهٌ وأندادٌ، كُلُّهم مخلوقون، وكُلُّهم عِباد.

والله الغني عن العالمين هو الذي يُقسِّمُ الحقوقَ دون مُحاباةٍ أو تحامُلٍ، ومن هنا

(١) النساء : ١٣٥.

(٢) المائدة : ٨.

تأتي شريعته بالحق المُبين الذي يعلو على مصالح وأهواء الأفراد والجماعات، والطبقات والطوائف والجنسيات.

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (١)

وجاءت شرائعُ الله تُقيمُ الحقَّ، وتُجري العدلَ بين الناس على أساسٍ راسخٍ متينٍ من العقيدة التي تضربُ جذورُها في الأعماق.. وجاءت هذه الشرائع تُوافِق ظروفَ الناس الزمانية والمكانية، ومطالبَهم في تلك الظروف.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢)

ومن هنا تطوَّرت الرسالاتُ الإلهيةُ في التشريع، وإن توافقت في العقيدة، كما قال القرآن على لسان عيسي عليه السلام: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ (٣)

وكانت بعضُ المحرَّمات تُقدَّر - قديماً - بمثابة عقوبات لأهل الدِّين جزاءَ

(١) البقرة: من الآية ٢١٣.
(٢) المائدة: ٤٨.
(٣) آل عمران: من الآية ٥٠.

انحراف اقترفوه.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (١)

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ (٢)

وقد جاء المسيحُ عليه السلام يُحلُّ لهم بعضَ الذي حُرِّمَ عليهم، وجاء الإسلامُ يعلنُ الأساسَ الموضوعيَّ في التحريم ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ (٣)، وجعل أحكام شريعته للعقاب مقصورةً على شخْص المجرم وحدَه؛ إذ لم يعُد ثَمَّةَ مجال لدين آخر يرفعُ عن الناس مثل تلك الأحكام الجزائية العامة المؤبَّدة، التي كانت تُفرَض قديماً على الجميع، حتى يُبعَث رسولٌ جديد، فيخففها عنهم.(٤)

* * *

(١) الأنعام: ١٤٦.

(٢) النساء: ١٦٠.

(٣) الأعراف: من الآية ١٥٧.

(٤) الفكر القانوني الإسلامي. أحمد فتحي عثمان، ص٧، ٨.